المقـدّمـة

الحمد لله الذي ارتضى الاسلام لعباده شريعة ومنهج حياة ، وأكمل لهم الدين ، وأتم عليهم النعمة ،والصلاة والسلام على من اختتمت برسالته الرسالات ، وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وعلى من آمن بدعوته ونهج نهجه واتبع سنته وبعد:

فإن من أهم ما يتميز به الوقت المعاصر تصارع الأفكار والآراء ، وظهور الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، وتشابك القضايا والمسائل ، واختلاف المصالح والمطامع ، وتزاحم الأهداف والوقائع التي لم تعهدها البشرية من ذي قبل فتشعبت المشكلات الانسانية ، واتسع نطاقها وضربت جذوراً عميقة في أرض الأحداث حتى مست الحياة الصناعية والتجارية والاجتماعية والأمن الداخلي والخارجي ، والنفسي والوجداني .

ومن هنا كان لزاماً على أهل الحل والعقد وعلى المفكرين الاسلاميين ودارسي الشريعة الغراء وعلومها القيمة ان يوثقوا صلتهم بالله تعالى وان يوطنوا أنفسهم على مراقبة الله والخشية منه ، وأن يرشفوا من مناهل العبادة والطاعة القدر الذي تسمو به النفس وتشف به الروح وترق معه العاطفة وأن يبذلوا قصارى جهدهم وجدهم

ومبلغ علمهم وعملهم حتى يحكموا كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم فيما جد ويجد من أمور ومسائل ؛ ذلك لأن الاسلام دين الحياة بأسرها : سياسة واقتصاداً واجتماعاً وإدارة ودولة . .

انه دين عبادة وجهاد ، دين محراب وسيف ، دين كفل للفرد والمجتمع المعيشة الكريمة الهانئة السعيدة ، إذا ما دانوا وخضعوا له وأعلوا رايته وحكموه في شؤونهم الخاصة والعامة .

ولم يكن الاسلام في يوم من الأيام قاصراً عن معالجة الأوضاع الاجتماعية والدولية والاقتصادية والسياسية ، بل إن هذا الدين الذي ولد في بيئة بسيطة في معاشها وفي أسلوب حياتها ما لبث أن امتدت تعاليمه السمحة في الآفاق ، وعم نور هديه وعدله مشارق الأرض ومغاربها ، فتصدى بمفرده لحل قضايا الشعوب والمجتمعات والأمم في كافة أقطار الأرض وانبرى بذاته لمعالجة مشاكل أكبر دولتين عظيمتين في ذلك الحين : فارس والروم .

إن هذا الدين العظيم الذي ما قصر وما عجز عن احتواء القضايا الانسانية وحل المشكلات الفردية والاجتماعية العامة والخاصة قادر في كل حين أن يقوم بدوره ويهيمن على واقع الحياة وأحكامها فيما لو رجع المجتهدون المسلمون إلى نبعه الثر الخصيب الذي فيه حكم ما بيننا مصداقاً لقوله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[1] .

وإن من مقتضى العرفان بالجميل والوفاء بالعهد لهذا الدين العظيم أن يثوب إليه أبناؤه وأن يجهدوا بالدعوة إليه ، وأن يعلنوها صريحة واضحة (إن الحكم إلا لله) .

---

(١) الاية/٣٨ من سورة الأنعام.

وليس الفقه الاسلامي بذلك النظام الذي يرفض كل حديث لحداثته وكل جديد لجدته ، بل انه يتناول الأمور والمسائل باعتبار الواقعية والمصلحة ، ويستقطب كل تغير ويدفع به إلى مختبره ليقيسه بمقياسه الخاص .ويزنه بميزانه الدقيق الحساس ؛ فما وافق الكتاب والسنة والأصول العامة التي يدعو لها ، وضعه في قالبه وأعطاه صفة الاباحة والمشروعية ، وما نافى تعاليمه العامة والخاصة ، وما خرج عن نطاق اطاره العريض أبعده عن الساحة الاسلامية والصبغة الدينية .

بهذه المرونة ، وبهذا الوضوح استطاع الفقه الاسلامي أن يبني كيانه وأن يثبت استقلاله الذاتي وقوته الأصيلة ، وخلوده الدائم ومواجهته لكل أمر يتمخض عنه كل عصر ، ومقدرته الفائقة على معالجة القضايا والحوادث في كل موطن وعهد ، وأن يصبغ كل حقيقة بصبغته حتى تغدو السمة الاسلامية هي البارزة في منبت المشكلة ونزعتها ونشأتها ، وغايتها وهدفها .

ومن هنا ندرك أهمية « الاجتهاد » في الاسلام ذلك الباب المفتوح أمام العقل المسلم ليفكر بحرية كاملة وبحصانة معززة ، بعد أن يتسيج بسياج الايمان والعلم ، ويعتصم بسور منيع من التقوى والرهبة لله ، ويجتنب الهوى والرياء والنفاق ، فيكيف كل معطيات العصر تكييفاً اسلامياً ، وينظر إليها من زاوية عادلة محورها العقيدة والشريعة .

وعلى كل فما يصل إليه الفكر الاسلامي إنما هو رأي منبثق من الشريعة وخادم لها ، وقد يوافق الحق والخير والعدل وقد يقترب من مسارها ، ولكل مجتهد أصول وأسس ودعائم ينهض عليها ويقوم بها ،

وكل مجتهد مأجور ، وكل صاحب نظر وفكر وقول يؤخذ بقوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلّم . . ويبقى كتاب الله وسنة رسوله (عليه الصلاة والسلام) الأصل والمشعل الخالد والنور الباهر ، والحقيقة الدائمة الثبوت التي لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ولا تطور ولا يمسها تعديل . . . ويبقى هذا الأصل القمة السامقة والمثل الأعلى لكل من يرتفع طموحه ويسمو تطلعه لينهل منه ويقيس بحكمه الثابت كل محدث وكل جديد ، والله في عونه ما دام يبحث عن الحقيقة .

ولهذا فقد اهتم الأصوليون بالاجتهاد باعتباره مظهراً لأحكام الله ، وذلك في الوقائع التي لم يرد بها نص صريح ، وقد تناوله المتقدمون بالبحث والتفصيل وتبعهم المتأخرون ، فأُلّفت رسائل علمية عن الاجتهاد ، واخرى قابلت الاجتهاد بالتقليد ، وهكذا . . .

* * *

ويأتي هذا البحث إضافة علمية لتلك الجهود السابقة الكريمة ، والتي تسعى من وراء ما تبذله إلى بيان الحجة الثابتة القائمة ، وهي صلاح هذه الشريعة الغراء لكل زمان ومكان ، وضرورة ان يعود المسلمون في واقع حياتهم إلى تطبيق هذه الشريعة وإلا فإنهم لم يؤدوا الأمانة التي أناطها الله بهم ؛ حين جعلهم الأمة الوسط الشهيدة على الناس ، وحين جعل جوهر دعوتهم في الارض (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله) . . . وهل تتحقق الصورة التطبيقية الحيّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بهيمنة هذه الشريعة السمحاء على نظمنا الاجتماعية والاقتصادية وعلى مناهجنا التربوية وعلى كل جزئيات سياسة المسلمين الداخلية والخارجية !!

ومن هنا تبدو ضرورة الاجتهاد ، وتتجلى أهميته ، ولا سيما في

هذا العصر الذي يزخر بالتعقيدات ، ويطرح على العقل المسلم كل يوم جديدا من المستحدثات والمبتكرات والافكار والتصورات .

* * *

ولعل هذا من أبرز العوامل التي دفعتني إلى الكتابة في « الاجتهاد في الاسلام : أصوله وأحكامه وآفاقه » ، فاني لعلى يقين من أن هذا الباب يجب ان يظل العقل المسلم مفتوحاً عليه ، وأن تتوالى فيه البحوث العلمية الرصينة التي يُتم بعضها بعضاً ، أو يجلي بعضها ما غمض من نقاط اتضحت أبعادها لديه .

وقد رأيتُ خضوعاً للمنهجية العلمية - أن أقسم هذا البحث إلى خمسة فصول :

الفصل الأول ؛ وقد أدرت البحث فيه حول « أصول الاجتهاد » فتناولت علاقة الاجتهاد بعلم الاصول ، وعـرَّفت الاجتهاد لغةً واصطلاحاً ، وأظهرت الفروق القائمة بين الفتوى والقضاء ، وعلاقة الاجتهاد بالرأي ، والمناسبة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ، وأركان الاجتهاد ، وما إلى ذلك من قضايا تمثل « الأساس » بالنسبة للاجتهاد .

والفصل الثاني ؛ وقد خصصته « للمجتهد » من حيث منزلته وشروطه العامة وشروطه التأهيلية الأساسية والتكميلية .

أما **الفصل الثالث** ؛ فقد تناولتُ فيه « أحكام الاجتهاد » من حيث وصْف الشارع له ، ومن حيث أثره الثابت به ، وجواز تجزئته ، ومن حيث مراتبه مطلقة أم مقيدة بمذهب من المذاهب .

وأما **الفصل الرابع** ؛ فقد عالجتُ فيه القضية الأساسية التي تشغل أذهان المخلصين للشريعة الاسلامية ، وهي قضية (تجديد الاجتهاد) بما يندرج تحتها من مسائل ، مثل إمكان تغيير الرأي للمجتهد الواحد ، ومدى حق الحاكم في الاجتهاد وتغيير أقضيته بتغيير اجتهاده ، وتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة . .

وأخيراً جاء **الفصل الخامس** ختاماً لهذا العرض ، فعالج « أهمية الاجتهاد في العصر الحديث » والحاجة الملحة إليه ، واقترح البحثُ « الاسلوب الجماعي في الاجتهاد » نظراً لأسباب كثيرة فصلها البحث ، ونظراً لأن هذا الاسلوب يعطي ضمانات متعددة لسلامة الرأي ، في عصر تشابكت فيه الامور ، وتعقدت القضايا ، بينما قلَّ زادُ المجتهدين !!

* * *

وإني لأدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا العمل أمتنا الاسلامية ، وأن يهدي ولاة أمورها إلى الخضوع لشريعة الله وإلى تحكيمها في حياة الامة . إنه على كل شيء قدير .

الرياض في ٢٠ رجب من سنة ١٤٠٠هـ
الموافق ٣ حزيران (يونية) من سنة ١٩٨٠م

د. نادية شريف العمري